



نحو موسوعة تراثية أردنية

د. جمال الدبعي حياصات/ الأردن

من مثل المؤتمر الثقافي الذي تعقده جامعة فيلادلفيا، وكذلك الجامعة الأردنية، وغيرها من المؤسسات المهمة، ولكنها جهود مبعثرة ينبغي لها أن تكون تحت مظلة وزارة الثقافة وعبر المركز الوطني للحفاظ على التراث، من خلال الدراسات والمؤتمرات والبحوث والندوات والملتقيات والمنتديات الثقافية، ودعم المؤلفات والمنشورات التي تناولت قضايا التراث الشعبي الأردني.

وينبغي لنا أن ندرك القيمة الحقيقية، لضرورة وأهمية توثيق المآثورات الشعبية وتصنيفها وأرشفتها، باعتبارها تمثل البعد الحضاري والتاريخي للموروث الثقافي في هذه المنطقة.

وغني عن القول إن التراث الشعبي في منطقة بلاد الشام (الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان) يمتاز بدرجة عالية من التشابه بمعطيات التعبير والرمز والمدلول، بحسب ظروف البيئة والطبيعة وبالتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كافة.

نظرًا لتزايد الاهتمام بالدراسات الشعبية وفي إطار سياقاتها الثقافية، وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، جاء التأكيد في المؤتمرات والملتقيات المهمة بالتراث والأدب الشعبي على محاور ترتبط بالهوية الثقافية للمجتمعات المنتجة لها، وقد طرح في إطار اهتمامي الشخصي بالدراسات المتعلقة بالموروث الشعبي ضرورة وجود مركز وطني لدراسات التراث في وزارة الثقافة على شكل يعطي الديمومة له، واستمراره في تلقي وحفظ ما دون من تراثنا الشعبي وفق آليات متعددة للحفاظ على الموروث الشعبي الشفهي والمكتوب، من أدب شعبي، وألعاب شعبية، وفنون ترتبط بالحياة الاجتماعية، والتي تعبر معانيها ورموزها، عن أبعاد ذات دلالة اجتماعية ترتبط بعادات وقيم وتقاليد معينة.

كما وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى الجهود التي تبذل هنا وهناك لأفراد وجماعات ومؤسسات للتركيز والبحث في القضايا الثقافية والتراثية،



الاجتماعية اليومية.

وما نشاهده وما نستمع إليه في مراسم الحياة الاجتماعية والتي نحاول التمسك بها مضموناً وشكلاً، تمّت صياغتها وفق معطيات البيئة المحيطة في التعبير الفني والأدبي على شكل التردد والإيقاع الصوتي والحركي بالقصائد والأناشيد، والحركات والأدوار التعبيرية الرمزية التي تصوّر مواسم ومراسم الحياة الاجتماعية لأبناء المنطقة أو المجتمع، ومدى تأثيرها الصوتي، والعاطفي المرتبط بحالات الفرح والتعبير عنه بالرقصات والدبكات والأهازيج والحداء والأغاني، وكذلك الحال في قضايا تتعلق بالنجاح أو الفوز أو المولود الجديد، أو المطر أو جني المحصول بمقابل الحزن، وفقدان شخص عزيز، أو الخسارة في الحرب والهزيمة، أو نتيجة لما يحصل من كوارث طبيعية مختلفة تؤثر في حياة الناس واستقرارهم.

إنّ التراث الشعبي العربي عمومًا كان له موضوعات متعددة ومتنوعة تمتاز بمدى تأثيرها

المنطلقات وأصول الدراسات

في التراث الشعبي

لماذا نهتمّ بالتراث الشعبي؟ هل يعود ذلك للعاطفة نحو الماضي وما ترك لنا السلف من موروثات فكرية وحضارية إنسانية، تشكّل نقاط التلاقي مع مضامين عميقة لها مدلول وتأثير على الأفراد والجماعات في حياتهم اليومية؟ أم أنّ هذه المفردات والبقايا والآثار المادية والمعنوية، تعبّر عن حياة المجتمع ومعادلته المتعلقة بالتعبير الرمزي واللفظي والدلالي والحركي الذي يجسّد الأدب الشعبي، وما كان يتوفر من ذخيرة ثقافية لحياة المجتمع؟

لا يمكن تجاهل مضامين التعبير الثقافي بالحركة والكلمة والحرف والعمل المعبّر عن الأحداث والمواقف الإنسانية المرتبطة بالحب والتضحية والكفاح والعواطف، بجوانبها الإيجابية والسلبية التي تعبّر عن قيم اجتماعية وذاتية فردية، وعادات وتقاليد تجسّد صدق التعبير عن المشاعر والأحاسيس المرتبطة بواقع الحياة



الهويّة الثقافيّة الوطنيّة للشعوب والمجتمعات، من هنا تأتي أهميّة دراسة التراث الشعبي لأيّ مجتمع من المجتمعات، لأنها تجسّد الضمير والوجدان والهويّة والطموحات التي تعبّر عنها الأجيال في احترام ما يتّسم به تراثهم من أصالة تعبّر عن قيم التواصل الإنساني والاجتماعي، ومعاني عميقة ترسم ملامح الزمن الذي يعكس واقع الفكر والثقافة بإطاره العام من فنون وآداب ومسرح وفلكلور يرسم لوحات التراث الأصيل.

صون التراث الشعبي غير المادي، ينبثق في إطاره التوثيق للحكايات الشعبيّة، والتوثيق للأماكن، والحرف والمهن الشعبيّة، ومضامين أخرى ترتبط بالملابس والأدوات، وحتى الأثاث وأماكن التجمّع، وما كان يقدّم في التعليلة من منتجات شعبيّة يدويّة، ولعلّ قراءة التجارب التي يمكن من خلالها الاعتماد على آليات جمع التراث

بالبيئة والظروف المحيطة، ومتغيرات الحياة الاجتماعيّة اليومية المختلفة. من هنا فإنّ السّير والملاحم الشعبيّة والشعر والحكم والأمثال والمأثورات والفنون والعمارة والأسطورة وخيال الظل والحرف اليدويّة التقليديّة والتاريخ المروي، جميعها موضوعات تعبّر عن ضمير الشعب وحساسيته وحيويته ووجدانه وتفكيره، وما يتمخض عنها من ضوابط ومحدّدات وأعراف وتقاليد تميّزه عن غيره.

إنّ محاولة جمع التراث بجانيه المادي والمعنوي، الشفوي واللاشفوي والمدوّن، والمتبقيات والأعمال التي تقدّم صوراً تعبيرية وحركية لأداء الأفراد وأدوارهم، تؤشر إلى المعاني والدلالات العميقة للموروث الحضاري الإنساني النبيل والمؤثر في وجدان المجتمعات، وتعطي بعداً وتأثيراً وجدوى للتناغم والتماهي والانسجام مع فلسفة الحياة والمجتمع، وصور وقوالب، تؤصل

أصدرت كتاباً بعنوان "التراث غير المادي: كيفية الحفاظ عليه، وإعداد قوائم الحصر: تجارب عربية وعالمية" وقد تضمّن هذا المؤلف أعمال الملتقى الإقليمي للمنطقة العربية حول صون التراث غير المادي، وإعداد قوائم الحصر، والذي جرت فعالياته في الفترة من (-31/3 4/4/2007) في أبوظبي، وأكد أهميّة اتفاقية حماية التراث سالف الذكر، باعتبارها تصون التراث الثقافي غير المادي وتحافظ عليه من الانقراض والاندثار والضياع، وأهمية تسجيله في اليونسكو، وبخاصة في المنطقة العربية، يذكر في هذا السياق أنّ الدول العربية التي وقّعت على الاتفاقية المتعلقة بحماية التراث كانت ست دول، ازدادت بعد الملتقى إلى إحدى عشرة دولة^(*).
تجدد الإشارة هنا إلى الورقة التي قدّمها الباحث الأردني هاني العمدة والتي كانت بعنوان "جهود الأردن في جمع التراث غير المادي رسمياً وفردياً"،

غير المادي، تجعل محاور التلاقي بين الماضي والحاضر ممكنة، ويجعل ما هو تراثي تقليدي من الممكن استيعاب معانيه الحضارية والإنسانية المرتبطة بالإنسان والزمان والمكان، والمأثورات الشعبية.

دراسات في توثيق التراث الشعبي العربي

ينبغي لنا هنا الإشارة وبشكل موجز لبعض الأبحاث والدراسات والمؤلفات والجهود العربية التي تناولت بعض جوانب التراث العربي على وجه العموم.

اهتمّت منظمة اليونسكو بقضية التراث غير المادي في المجتمع الدولي منذ العام (2003) حيث أعلنت اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي، إذ انبثق بعدها العديد من المؤتمرات والندوات الدوليّة بهذا الخصوص. والجدير بالذكر أنّ هيئة أبوظبي للثقافة والتراث قد



وكذلك الورقة التي قدّمها الباحث نادر جلال ذياب بعنوان "التجربة الفلسطينية في جمع التراث غير المادي"، كذلك "السياحة الثقافية والتراث غير المادي بسوريا" للباحث علي القيم، وهناك بحث تقدمت به الباحثة أروى عثمان حول تجربة جمع وتوثيق التراث المعنوي في اليمن. ويبحث حول "حفظ التراث غير المادي: الأدب الشعبي وسبل صونه في سلطنة عُمان" للباحثة آسيا بنت ناصر، وأيضًا البحث الذي تقدّم به الباحث المغربي سمير قفص وتناول فيه التراث غير المادي في المغرب، ونشير أيضًا للبحث الذي تناول تجربة صون التراث الثقافي غير المادي في موريتانيا للباحث السالك ولد محمد مصطفى. وفي إطار محور صون التراث غير المادي والتجارب العريية في الماضي والحاضر، قدمت الباحثة ريتا عوض ورقة بعنوان "جهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو) في الحفاظ على التراث العربي (المؤتمرات والاجتماعات والبرامج)". وقدّم الباحث أحمد موسى بحث تناول فيه "حفظ التراث غير المادي وحمايته: المأثورات الشعبىة المصرية نموذجًا"،

فيما قدّم الباحث إبراهيم سند بحثًا بعنوان "طرق وأساليب الجمع الميداني لعناصر التراث في البحرين". الجدير بالذكر أنّ هناك أوراق عمل أخرى تناولت تجارب وأساليب جمع التراث في بلدان عربيّة وعالمية أخرى، تمّت مناقشتها في الملتقى السالف الذكر⁽¹⁾.

كما ونشير إلى جهد الباحثة الليبية فاطمة الغندور في جمع وتوثيق الحكايات الشعبىة الليبية في كتابها الذي صدر عام (2005) بعنوان "يا حجاركم...يا حجاركم"⁽²⁾، ونشير كذلك إلى مؤلف بعنوان "توثيق الحرف والمهن الشعبىة" (الجزء الأول) حرف ومهن مدينة القاهرة⁽³⁾ إعداد وتحرير مصطفى جاد وأحلام أبو زيد، ويأشراف عام للباحث أيمن خوري، وقد اشتمل الكتاب على نماذج موثقة بالشرح والصورة لمراحل وأدوات عشر حرف يدويّة، نذكر منها: أشغال النحاس، صناعة الشموع، فانوس رمضان، النجارة البلدية، عروسة المولد، تجليد الكتب، التطعيم بالصدف، والجدير بالذكر هنا أنّ الجمع والبحث والتوثيق للحرف الشعبىة المصرية لم ينفصل عن رصد الأدوات



نقل من أهمية وقيمة ما تمّ جمعه من التراث على المستوى المحلي، وبجهود ظهرت على شكل مؤلفات في الألعاب الشعبيّة والحكايات والصناعات والحرف التقليديّة القديمة، والمأثورات الشعبيّة، هذا بالإضافة إلى المدونات والمرويات المتعلقة بموضوعات تراثية، وبخاصة تلك المتعلقة بالتراث الشفوي؛ وذلك خوفاً من اندثار التراث القديم، وبالتالي ضرورة توثيقه وتأصيله وفق موثوقية ما يتم تلقيه أو تناقله أو روايته.

ولعلّ جهود الباحثين والمهتمين بالتراث الأردني، قد وضعت المعالم والمضامين الأساسية لصورة الحياة والمجتمع، والتي تم الوصول إليها وتلقيها وتوثيقها، وباتت تعكس مجموعة من الأبعاد والمعطيات للبحوث التراثية وموضوعاتها، وعلى الرغم من أنّ هذه الجهود الفرديّة أو المؤسسيّة أو الجماعيّة قد شكّلت إطاراً عامّاً لمنظومة التراث بالمعنى العام، فإنّ تتبّع الرواية، وتسجيل الروايات والحكايات، وتعزيز صحتها فيما يقدّم من وثائق وشواهد، ومقارنته للروايات مع النصوص التراثية، تعطي جملة من القواعد العريضة التي يمكن الاستناد عليها في البحث والجمع والتوثيق والتصنيف والتمحيص، لإعطاء درجةٍ ومستوى عالٍ من المصدقية والدقة في البحث المستند على المراجع والمصادر التي تحقق ما تم توثيقه.

وينبغي هنا تأكيد ضرورة أن يكون جامع المادة التراثية بالضرورة مطلع على تاريخ المنطقة الاجتماعي، ولديه معلومات تاريخية، تعزز

المستخدمة في كل حرفة، ووظيفة كل منها، ثم الخامات والمواد المستخدمة في كل حرفة، والمأثورات المتداولة حولها من أمثال وحكايات وعادات ومعتقدات؛ وقد استخدم فريق العمل (التصوير، الجمع الميداني، التوثيق، تحرير المادة، العرض والتقديم).

ولأغراض التوثيق لإنجازات وطنية وعربية في مجال التراث، نشير إلى واحدة من المجلات التراثية على مستوى الوطن العربي: نشير لمجلة "التراث العربي"، والتي تهتم بكنوز الثقافة، والحضارة العربية، والمخطوطات العربية في مختلف مكتبات العالم، وتقديم دراسة علمية حولها، وعرض دراسات مقارنة بين التراث العربي والتراث الإنساني، وتعنى كذلك بتتبّع كتب التراث المنشورة، وتقويم جهود المستشرقين في خدمة التراث العربي ومناقشة آرائهم حوله، وكان أول عدد منها قد صدر عام 1979.

ومن المهم أيضاً أن نشير إلى كتاب "دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس"⁽⁴⁾، وقد جاء الكتاب في (13) فصلاً، في الفصل الأول تمّت الإشارة إلى الدور الثقافي والحضاري لبعض شخصيات وأعلام مقدسية، وفي أحد فصوله تم تناول القدس (هوية وعمارة)، وفي فصل آخر تحدث الكتاب عن العثمانيين ومدينة القدس (الحفاظ على الدور الثقافي والحضاري)، وقد جاء هذا الكتاب بمناسبة اختيار القدس عاصمة للثقافة العربية عام 2009.

في إطار ما تقدّم فإنه ينبغي أن تستند دراسات التراث على أسس أكاديمية وعلمية، لذا فنحن لا

موقفه كجامع للتراث أمام الباحث الإجرائي الذي يتحمل مسؤولية فحص وتمحيص ومقارنة ما تمّ تلقّيه أو نقله.

وفي الختام، تجدر بنا الإشارة لبعض من الباحثين والدارسين للتراث من خلال أبحاثهم ومؤلفاتهم من أمثال هاني العمدة، ومصطفى الخشمان، والزعبي، وأبو صوفه، والهباهبه، والعزيزي، والعايد، والأزرعي، وغيرهم ■

(*) الدول العربية التي وقعت اتفاقية (2003): الجزائر، الإمارات، مصر، سلطنة عُمان، المغرب، سوريا، الأردن، لبنان، تونس، موريتانيا، اليمن.

(1) "تجربة السودان في توثيق التراث غير المادي" للباحث يوسف حسن مدني.

"تجربة سلطنة عُمان: جمع وتوثيق التراث الموسيقي التقليدي" للباحث مسلم بن أحمد الكثيري.

"تجربة دولة الإمارات في حفظ التراث غير المادي" للباحث عبد العزيز المسلم.

"النموذج الجزائري لحماية الكنوز البشرية" للباحث زعيم الخنشلاوي.

"التجربة السورية في جمع وحفظ التراث الشعبي بعد اتفاقية (2003) والآفاق المستقبلية" للباحث كامل إسماعيل.

"الإجراءات التشريعية والقانونية الخاصة بصون التراث من خلال تجربة المركز الوطني للمأثورات الشعبيّة في ليبيا" للباحث علي برهانه.

"دور هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث في الحفاظ على الصناعات اليدوية" للباحث سعيد حمد

الكعبي.

"تقنيات جمع التراث الثقافي غير المادي في المخطوط والشفهي- قراءة في التجربة المغربية" للباحثة السعدية عزيزي.

(2) يقع كتاب فاطمة الغندور في (100) صفحة، اتبعت فيه منهجًا علميًا في تدوين وتوثيق مجموعة من الحكايات الشعبيّة- "كنص شعبي" حيث نقلت وكتبت من أفواه رواّتها كما هي دون حذف أو إضافة، واشتمل الكتاب على (20) حكاية شعبيّة.

(3) صدر الكتاب عن مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي- مكتبة الإسكندرية عام 2009، ويقع في حوالي (160) صفحة. لذا نعد هذا الكتاب بما فيه من صور فوتوغرافية إلى جانب النص المدون، فهو يأخذ بعد الإثنولوجيا البصرية والتي تعكس السلوك الإنساني، فالكتاب بمثابة أرشيف وطني للحرف الشعبيّة، قائم على توثيق علمي وميداني.

(4) صالح، محسن محمد، وآخرون "دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس" (2010)، ط1، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، لبنان.

من المشاركين في فصول الكتاب: محمد عماره، محمد عيسى صالحية، بديع العايد، سامي الصلاحت، فادي شامية، محمود عواد، وسلامة الهرفي البلوي، ناجح بكيرات، إبراهيم عبدالكريم، رياض حمودة ياسين، إبراهيم أبو جابر، عبدالله كنعان، عبدالجبار سعيد، محمد أكرم العدلوني.